مجلة الرائد

العدد : ٢٠٩ الموافق في محرم ١٤٢٠ هجري ٥ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : الطغاة .. وحرية القلم –١–	بقلم : د. موفق الحكيم

وصاحب القلم أمام أمرين لا ثالث لهما ،

إما أن يمشي في ركب هؤلاء الطغاة ، فيرى ما يرون ، ويُعظم ما يعظمون ، فلو قالوا له أن الصبح ظلام !! لأجابهم بل إنه شديد الحلكة !!! ولو قالوا له أن الجملَ يطير ولا يسير !! لقال : بل إنه يسبق الطائرة النفاثة !! .

وإما أن يُرضي الحق والضمير ، ويقف في مواجهة الطغاة ولو كان على حساب روحه ومكانته وماله وعائلته .

يقول الأستاذ أحمد أمين (فيض الخاطر ج٢ ص١١٣): " إن قلت في التاريخ من أول عهده إلى اليوم ما يُرضي الحكام والولاة والشعوب ، فرفعت من شأنهم ولو زوراً ، وغلوت من مفاخرهم ولو كذباً ، وسكت عن مساويهم ولو كانت صارخة ، وعمدت إلى اتجاه عواطفهم فسرت معها ، وقصدت إلى الأوتار التي تطربهم فغنيت عليها ، وشهرت بخصومهم، وقللت من شأنهم ، وكذبت في إنكار فضلهم ، وكان لك من البلاغة ما استطعت به أن تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، وتجعل الأرض سماء والسماء أرضاً ، والحلو مراً والمر حلواً ، واستطعت بفصاحتك أن تظهر مهارتك في اختراع حجج تُشوه بها وجه الصدق ، وتُجمل بها وجه الكذب ؛ فهذا جمل يطير ، إن قلت به فأنت المؤرخ وأنت البطل وأنت البليغ ، وأنت الذي يغدق عليه المال ، وأنت الذي يمنح خير الألقاب ، وأنت الحقيق بأن يقام له تمثال " ويتابع أحمد أمين قائلاً " وإذا اتخذت إمامك الرأي العام ، تنكر ما ينكر ، وتؤيد ما يؤيد ، وسرت وراء الزعماء إن انحرفوا يميناً انحرفت يميناً أو يساراً فيساراً ، وإن قالوا قولاً ظاهر البطلان ، قلت : إن لهم غرضاً لا ندركه ، وغاية لا نتبينها إلا بعد حين . وإن كان الساسة يرون الحرب قلت الحرب ، وإن قالوا السلم قلت السلم ، وإن قالوا الحرب في هذا الجانب قلته ، وإن قالوا في الجانب الآخر قلته ، وإن قالوا عدونا فلان ، قلت : إنه عدو لدود ، وإن قالوا : صديقنا فلان ، قلت إنه صديق حميم ، واستعملت في كل ذلك حنجرتك إن كنت من ذوي الحناجر ، وقلمك إن كنت من ذوي الأقلام ، ومالك إن كنت من ذوي الأموال ، فهذا كله جمل يطير "

ويتابع " وأما إن أنت لم تعبأ بميول الحكام والولاة وعواطف الشعوب ، فأخذت تحلل كل خبر وتبين بواعثه ودوافعه ، كما يحلل الكيماوي المادة في معمله ، وتُصدر حكمك لا تراعي فيه إلا الحق ؛ فتارة

يرضي العواطف وتارة يغضبها ، وأحياناً يرضي الرأي العام وأحيانا يغضبه ويهيجه ، وأنت لا يهمك أرضي أم غضب ، وكره أم أحب ، ولا يهمك إن اتفق رأيك ورأي الناس أم خالفه ، وتعمد إلى ما يعده الناس وثائق فتهزأ بها ، وإلى الإشاعات فتتحراها وتركزها في بوتقتك وتشعل تحتها النار فتبخرها ، وتصدر حكمك على من يسميه الناس بطلاً فتنكر بطولته ، وعلى ما يعده الناس سافلاً فتعرضه نبيلاً ، وإن فعلت ذلك فهذا جمل يسير ، فأنت الفقير ، وأنت المتفلسف وأنت المتعجرف ، وأنت الذي يطرد ويشرد "

والغالبية من أصحاب القلم - وللأسف - تخضع للسلطان ، وتخنع لبريق الذهب ، وتركع أمام إغراءات المنصب والجاه ، وهؤلاء الناس تجدهم قد جردوا أقلامهم وانتضوا يراعهم من أجل خدمة هؤلاء السادة والحكام ، واتخذوا الكتابة وسيلة للتكسب ، يمدحون ويتزلفون وينافقون ، يبطلون الحق ، ويحقون الباطل ، ويزيفون الأمور ، قد لبسهم الهوى فأنطق قلوبهم بما يعصى ، واستعبدتهم الشهوات فألقت بهم في المتاهات وألغت ضمائرهم وجردتهم من إنسانيتهم فأصبحوا عبيداً للقلم بدلاً من أن يكونوا أمراءه ، وأصبحوا إمعات للسلطان بدلاً أن يكونوا نصحاءه ، وأصبحوا من أنصار الباطل بدلاً من أن يكونوا أعداءه

إن أمثال هؤلاء القوم تجدهم في كل عصر ومصر وقصر ، صفاتهم واحدة لا تتغير مهما تبدل الزمان أو تغير المكان ، إغراق في المديح وتفنن في البديع وإفراط في وصف الحاكم بحسن الصنيع ، يُمدح إذا اتى بالخير ، ويمدح إذا أتى بالشر ، فعطاؤه كرم يفوق كرم السحاب ، والكلمة التي ينطق بها درٌ وحكم ، والانهماك في الملذات ظرف وتسلية ، وقتل الأبرياء حزم ، والعفو عن المظلومين شهامة ، يُطرون ظلمه ويسبحون بحمده ، ويخلعون عليه من الصفات ما يتجاوز الملائكة الأطهار ، والأنبياء الأبرار ، فهو أبلغ من سحبان وائل وإن كان في حقيقته أعيان باقل ، وهو أجود من حاتم وإن كان أطمع من أشعب ، وهو صاحب الوعد المحافظ على العهد وإن كان في حقيقته أخلف وعداً من عُقروب ، وهو صاحب الحلم والعقل والرأي ، وإن كان أخف حُلماً من عصفور ، وهو صاحب العزة والشأن وإن كان في حقيقة نفسه أذل من وتد بقاع ، وهو صاحب البصر والبصيرة وإن كان أعمى من الخفاش ، وهو صاحب العدل والإنصاف وإن كان أروغ من ثعلب ، وأظلم من ذئب .

يقول الأستاذ أحمد أمين في فيض الخاطر ج٥ ص٢٥) " وكل حاكم سيد الوجود في زمانه ، آت بالمعجزات في أعماله ، معصوم من الخطأ فيما يأتي به يبتز مال الناس غصباً فلا يلام على ما غصب

ولكن يمدح على ما انفق !! ويقتل من يشاء فلا يسأل عمن قتل ، ولكن يشاد بفضله إذا عفا !! الفن والأدب والشعر والنثر موسيقى لطربه وبهلوان لتسليته ، وعبيد مُسخرة لنهش أعدائه ومدح أوليائه " ويتابع قائلاً " حكام كل ولاية يحكمون البلاد بعقول ضيقة ، وشهوات واسعة ، فخفخة في المظهر وسُخف في المخبر ، لا يقيدهم قانون ولا يردعم عدل ، ولا يرون للشعوب حقاً إلا أن تؤمر فتطيع وتُنتهب فتصبر ، بل لا يكفيهم الصبر على المصيبة ، وإنما يتطلبون المدح والثناء عليهم في ظلمهم وطريقة حكمهم ، فمن امتعض من ذلك فهو ثائر ، ومن شكا فهو كافر ، فأورث ذلك الهجرة لما احتفظ بإبائه ، والذل والهوان عند من لصق بأرضه "

ويعبر الشاعر الكبير أبو العلاء المعري فيصف هذه الحال حيث يقول :

إذا وصف الطائي بالبخل مادرٌ وعير قساً بالفهاهة باقل
وقال السها للشمس أنت خفيةٌ وقال الدجى : ياصبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهةً وفاخرت الشهب الحصى والجنادلُ
فياموتُ زر إن الحياة ذميمةٌ ويانفس جدي إن دهرك هازلُ

ويقول الشاعر الكبير محمود سامي البارودي :

وأقتلُ داءٍ رؤيةُ العين ظالماً يُسيء ويُتلى في المحافل حمدُهُ

ويقول الأستاذ الحبيب عصام العطار حفظه الله : " عندما يكون الطغيان في بلدٍ محدوداً أو جزئياً ، يتكلم متكلمون وينقد ناقدون ، ويعارض معارضون ، وعندما يزداد الطغيان شدةً وشمولاً يصمت أكثر المتكلمين والناقدين ، ويختفي أكثر المعارضين ، وعندما يبلغ الطغيان غاية شدته وعنفه يتحول النقد عند الأكثرين إلى ثناء ، والمعارضة إلى ولاء ، والسواد القاتم كله إلى بياض ، فإذا رأيتم المظلومين يُثنون على الظالمين ، والمقهورين يوالون الجلادين ، فاعلموا أن الطغيان والبطش قد بلغ حده الأقصى ، وأن كل كلمة مدح وزلفىهي في الحقيقة كلمة هجاء وشكوى ، عجزت عن نطقها الشفتان ، وقلبها الخوف والفزع والاضطرار أو الجبن والطمع والصغار ... إلى مديح "

وشعراء السلاطين قديماً وحديثاً قد بالغوا في المديح والثناء ، بحيث فاقت صفات ومناقب الحاكم عند أمثال هؤلاء أحياناً الأنبياء !! وقديماً مدح أحدهم سلطان مملكته فقال فيه هذا الكلام الذي نستغفر الله

العظيم من محتواه ونبرئ النفس من معناه يقول :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الأحبار والأخبار

ويقول فيه أيضاً:

إمامٌ رأيت الدين مرتبطاً به فطاعته فوزٌ وعصيانه خسر
أرى مدحه كالمدح لله إنه قنوت وتسبيح يُحطُّ به الوزرُ

وانظر معي إلى هذا الشاعر الذي عاش في النصف الأول من القرن العشرين يمدح الملك فاروق ملك مصر ، وما أدراك ما الملك فاروق !! رمز الفساد والرذيلة والانحلال ، يقول فيه هذا الشاعر بمناسبة يوم مولده :

وبدا العرشُ قد حلَّ به يفرع الشمسَ ويعلو الأنجما
ورأى بعد سليمان له مشبهاً في عدله إن حكما
زانهُ الفاروق من خير أبٍ فدع المأمون والمعتصما
حين عزَّ الدين والملك به هنأ المنبر فيه العلما
لا ترى العين به إلا عُلا كلما تسمو له العين سما
أين شعري وفنوني من مدى لو مضى حسان فيه أفحما

ولندع الدكتور الناقد محمد مندور يجيب شاعرنا هذا على افتراءاته هذه ، قائلاً في كتابه - الشعر المصري بعد شوقي- معلقاً على هذا الشعر :" قول سخيف ، ففاروق يفرع الشمس ويعلو الأنجما ، وكلما سما له العين سما ، وكأنه بالون !! وهو يفضل على المأمون والمعتصم ، بل ومناقبه أسمى من مناقب النبي ﷺ التي استطاع حسان أن يبلغ بشعره مداها ، بينما لو حاول بمناقب فاروق لعجز وخانه الشعر ، وإنه لمما يحزن ألا يكتفي هذا الشاعر بكل هذا الإسراف والسخف ولكنه أيضاً يكشف عن دافعه غير الكريم وبه يختم قصيدته فيقول :

أنـا فـي فـيض لـه متـصل أنعـم تمـضي فـألقى أنعمـا
ليس بدعاً أن زها شعري به يزدهـي الـروض إذا الغيـث همـا

وكأنه يقول للفاروق زدني عطاءً ازدك شعراً !!

ونقول إن الشاعر ذاته ، يناقض ذاته في قصيدة أخرى له حيث يطلب من الشعراء أن يكون شعرهم حقاً نابعاً من النفس فيقول :

والنفس إن لم تكن بالشعر شاعرةً ظنته كل كلام جاء موزونا

ويقول أيضاً :

لو مدحنا من لا يحق له المد ح لوى الشعر رأسه فهجانا

ونحن نتركه لشعره هذا يحكم عليه !! "

وشاعر آخر عاش في النصف الأول من القرن العشرين ، انظر إليه يمدح ملك الإنجليز ، وما أدراك ما الإنجليز أصل البلاء ، وجذور الفساد ، وأسباب النكبات في عالمنا العربي والإسلامي ، يقول هذا الشاعر مهنئاً ملك الإنجليز بمناسبة شفائه من مرضه :

صاحب التاج أنت بالقوم أعلم هم يودون أن تعيش وتسلم
ويمينـاً لـولاك عـاث طغـاة في بلاد من جورهم تتظلم
ظعن الجور عن بلادك لما صِب العدل في ذراك وخيم
إننـا نعـرف الملـوك ولكـن إن عـددناهم فأنـت المُقـدم

ونحن يا سيدي نعرف ملوك وحكام الإنجليز ، ونعلم ما قدموه ويقدمونه لشعبنا العربي المسلم في كل مكان من أرجاء المعمورة ونستروح نسمات عدلهم ونستنشق هواء إنصافهم وخاصة في فلسطين والبوسنة والعراق وكوسوفو !!!

وشاعرنا هذا يناقض ذاته حيث يقول في قصيدة أخرى له !!

اجهـر برأيـك إن الحـق قـد غلبـا هذا يراعك يحكي السيف ما كتبا

أرى المضلين قد زاغت بصائرهم ومن يظن الدجى صبحاً فقد كذبا
سر في طريقك لا تحفل بذمتهم ولا يهزك مغرور إذا غضبا

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في قصيدة جميلة له ، تعبر عن الكتاب والشعراء والفنانين الذين ضللوا الناس بنفاقهم وزيفهم وتملقهم للحكام ، وما أكثرهم في هذا الزمان وكيف جعلوا من بعضهم ملائكة وهم في حقيقتهم أرباب الشياطين ، وكيف جعلوا منهم سادة وهم في حقيقتهم أذل من العبيد وكيف جعلوا منهم حكماء وهم في حقيقتهم أجهل الجاهلين ، يقول رحمه الله:

هُبـــــــــــــلٌ ... هبـــــــــــــلْ
رمز الخيانة والجهالة والسخافة والدّجل
هُتَّافـــةُ التهـــريج مـــا ملـــوا الثنـــاء
زعمـــوا لـــه مـــا لـــيس ... عنـــد الأنبيـــاء
ملك تجلبب بالضياء وجاء من كبد السماء
هـــو فـــاتح ... هـــو عبقـــري ملهـــمٌ
هـــم مرســـلٌ ... هـــو عـــالم ومعلـــم
ومـــــن الجهالـــــة مـــــا قتـــــل
هُبـــــــــــــلٌ ... هبـــــــــــــلْ
رمـــزُ الـــسخافة والجهالـــة والـــدجل
لا تـــسألن ياصـــاحبي تلـــك الجمـــوع
لمـــن التعبـــد والمثوبـــة والخـــضوع
دَعهـا فمـا هـي غيـرُ خرفـان ... القطيـع
معبودهـــا صـــنم يـــراه ... العـــمُّ ســـام
وتكفل الدولار كي يضفي عليه الاحترام
وســـعى القطيـــع غبـــاوة ... يـــا للبطـــل

وهؤلاء الشعراء أو الكتاب الذين يتملقون الطغاة ويتزلفون إليهم ، هم كالأفاعي ياصاحبي ، تُغير

جلودها حسب تغير الظروف والأحوال !! وليس من النادر ، بل هو الحاصل أن ينقلب شديد الثناء عند هؤلاء إلى أقبح الهجاء ، وأن يتحول هذا الشاعر أو الكاتب من النقيض إلى النقيض إذا غاب هذا الحاكم أو الطاغية لأسباب طبيعية أو غير طبيعية !!!

ألا ترى معي أننا في هذا الزمان نشكو من كثرة أمثال هؤلاء الكتاب الذين يمدحون حاكماً أتى بمثابة عودة الروح للأمة والمجتمع وأنه بعد رحيله يذمونه أبشع الذم ويُكيلون له أشد السباب ، والشتم وحجتهم في ذلك بأنه " عودة الوعي " إلى العقول والضمائر ، بل إن بعضهم قد تغنى بالوطنية والقومية والأمجاد العربية التي أحياها فيهم هؤلاء " الثوار " والبطل الذي جابه القدر وانقلبوا بعد وفاته يذمون عهده وزمانه ويتحولون من أهل المعارك إلى أرباب السلام والتطبيع وخلي بالك من زوزو ويتحولون عن المسؤولية إلى التغني بالدنيا ربيع والجو بديع وقفل لي على كل المواضيع !!! بل إن أحدهم الذي وصف " الزعيم الخالد " بأنه معجزة بلا أنبياء ، ودورة أرض بغير سماء قد ذم زمانه وحياته وصار يبكي على يوم مولده الذي ملأ حياته حزناً وبكاءً !!

إن أمثال هؤلاء وما أكثرهم في هذا الزمان ، يذكرونني بما قاله أحدهم في الأمس البعيد بعد وفاة أحد السلاطين حيث قال فيه " وقد كانت سيوفك لا تجف ، ونقمتك لا تؤمن ، ومدائنك لا ترام وعطاياك لا تبرح وضياؤك لا يخبو ، فأصبح ضوؤك قد خمد ، ونعمتك لا تخشى ، وعطاياك لا ترجى ، وسيوفك لا تنتضي ومدائنك لا تمنح .. لقد كنت بالأمس لا يأمنك أحد ، لقد أصبحت اليوم وما يخافك أحد !!! "

- للبحث صلة -